المساجد والمشاعر

في العصر الجاهلي

من آثار الاب لامنس

القسم الاول

٣

تتمة

لم تكن هذه الأماكن المقدّسة الوحيدة من نوعها في منطقة الحرم . وها ان الاستاذ شنوك هورغرونيه يذكر ، في زيارته مكة المعاصرة ، عددًا من «الحجارة المكرّمة ، حجارة سوداء وخضراء ، أصلها جميعاً أصلُ الحجر الأسود ومقام ابراهيم .»[1] وقد عرض مرتان هَرْتسان فرضيّةً تجعل من قُصَيّ ، جدّ سراة القرشيين الاسطوري ، معبودًا مكيًّا ؛ وتجعل من دار النَدوة هيكلَ هذا المعبود .[2] وهكذا يكون للقُرشيين في مكة مقابل ما كان للثقفيين في الطائف.[3] ولا يخفى ان الدور الذي مثّلته دار الندوة في نظام قريش السياسي لا يزال غامضاً . وما اسرع ما لجأ العلماء الى الشرح اللغوي ، فحوّلوا الندوة ، وهي بيت قُصَيّ ، الى شبه مجلس شيوخ في مكة الجاهلية.[4]

١) Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 21 وطلب ايضاً Burckhardt, I, 183 . وهناك ذكرٌ لحجارة يلثمها الحجّاج كما يلثمون اركان احدى المصاطب ، راجع ابن جبير : الرحلة ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦

٢) *Zeitschr. für Assyriol.* XXVII, 43... . راجع ، في شأن موقع الدار بالنسبة الى الكعبة ، ابن هشام : السيرة ٨٠ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٦٩ ؛ ابن جبير : ك.م . ١٨١ — وهذا الاخير لم يرَ الّا الموقع التقليدي ، او ما شاء القوم ان يدلّوه عليه .

٣) ياقوت : معجم البلدان (طبعة مصر) ٤ : ١٢—١٣ ؛ وراجع كتابنا في الطائف *Tāif*, 66-68

٤) ابن هشام : ك.م . ٨٠ ، ٨٢ ، ٢٢٢ ؛ وكتابنا في مكة *La Mecque*, 62... . اما البحث عن «دار الندوة» في دائرة المعارف الاسلامية فانه يلخّص المعلومات التقليدية دون ان يناقشها .

ومن يعرف ما اتصفت به الجزيرة العربية من الفوضى في النظام السياسي يستغرب ان يكون في مكة منظمةٌ من هذا النوع ولا تترك أثرًا في حوليات المدينة . والواقع انه ليس في التاريخ ما يؤيد هذا الزعم المستند الى تحذلق اللغويين ، وتخيلة الأثريين . ولم تظهر الدار مرّةً بمظهر المجلس الجامع يؤمه « الملأ » او تلك المشيخة القرشية التي كانت تعقد اجتماعاتها في الفضاء[1] ، امام الكعبة ، على نحو عشر خطوات من « البيت العتيق » . وكان اجماع الزعماء المكيين ضروريًا لايلاء تلك المقرّرات صفة القوانين ، بينما نرى دار الندوة لا تفتح ابوابها الّا لابناء قُصَيّ وحدهم ، دون غيرهم من اهل مكة .

اما بعد الهجرة فتُسرع الحوليات القديمة إسراعاً مريباً في التخلّص من هذا الأثر ، قائلةً انه عُرض للبيع على عهد معاوية[2] ، وكأنها تودّ التخلّص من شاهد مزعج ؛ مع انه كان يُعَدّ « مكرمة قريش ».[3]

ولنا في الاسم « عبد الدار » ، يحمله احد ابناء قُصَيّ[4] — كما في مماثله « عبد الكعبة »[5] — شاهدٌ على وجود هيكل مبني او « دار » لملّها « دار الندوة . » وهناك في تاريخ « الدار » الجاهلي اشارة تدفع الى النظر . وهي قول بعضهم ان هذا المجتمع القرشي حُوّل فيما بعد الى مسجد .[6] وقد فاته ان الجاهلية لم تميّز تماماً بين المسجد والمجلس . وها ان السيرة ، ومجاميع الحديث ، وسلسلة الاخبار والنوادر ، واقوال المفسّرين والشُرّاح تضع مجالس قريش او انديتها بقرب المسجد الحرام ، بل في داخله حتى تكاد تأخذ من فناء الكعبة . فنرى حياة مكة المدنية والدينية ، في اوائل القرن السابع ، تتمركز في هذا

١) وهكذا نرى في المدينة ان المجلس كان يُفتح على الشارع . اطلب مُسلم : الصحيح ٢٠ : ٢٣٨ ؛ وراجع *La Mecque*, 88, 226

٢) اطلب *Mélanges*, 244, 246 ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٤٥ ؛ اسد الغابة ٣ : ٤١ ، ٦ : ٧٠ . وهم لا يتفقون على اسم البائع

٣) اسد الغابة ٣ : ٤١ ، يصبح مقرًا للحكومة ، في ابن سعد : الطبقات ١ : ٤٥

٤) البلاذري : الأنساب (المخطوطة المذكورة) ٣٠ (وجه)

٥) اسد الغابة ٣ : ٢٦٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٢

٦) الاصطخري : جغرافيته (de Goeje) ١٦

الحرم المنكشف لا سقف له.[1] فيبحث المجتمعون في شؤون البلد التجارية ، بينما تمرّ أمامهم مواكب الحجّاج في طوافهم التقليدي.

هنا ينبض قلب مكة ، ويختلج دماغ تلك النقابة المالية المتحدّرة من قُصَيّ . وكان كلّ فريق من القرشيين يحرص على احتلال قسم من هذا الحرم للبحث في شؤونه حتى قيل : «لم يكن من قريش فخذ الا وله نادٍ معلوم في المسجد يجلسون فيه .»[2] وكانوا كثيرًا ما يخوضون في المناقشات الحادّة من اجل المسائل التافهة ، وهم مستندون الى الجدران في ظلّ الكعبة[3] ، او محتبون في دائرة الحِجر.[4] وفي هذا المقام الضيّق كان «المسجد» و«المجلس» يتداخلان حتى لا يميّز احدهما عن الآخر.[5] ولو صحّ ان «الدار» كانت مجتمعاً لمشيخة مكة[6] ، او مقرًّا لمجلس بلديّتها ، كما نقول اليوم ، لما فهمنا إسراع القوم ، واهتمامهم بان يحوّلوا الى مسجد جامع هذا المركز المدني . واذًا فقد عرفت دار الندوة اجتماعات غير هذه الاجتماعات المدنيّة البلديّة. ولهذا نرى ارباب الحديث ، وقد أنفوا من وجود هذا المسجد الوثني بقرب الكعبة[7] ، يُسرعون في تحويله على طريقة لا تخفى معناها على احد ، في يومنا هذا .

كانت القوافل بعد رجوعها من الرحلات الرسميّة ، «رحلة الشتاء ورحلة الصيف»[8] ، تحطّ رحالها امام دار النَدوة . «كذلك كانوا يصنعون.»[9] ومن هناك كانوا يرحلون. وكان رحيل القوافل الكبرى من الأحداث المهمّة في حياة المجتمع ، كانتقال القبيلة في سبيل النجعة ، وتغيير المنازل في البادية . وكلّها

---

١) اطلب كتابنا *La Mecque*, 73, 136, 173, 298

٢) اسد الغابة ٣ : ١٠

٣) هكذا كان يمشي النبي : ابو داود : السُنَن ٣ : ١٦١ ؛ اسد الغابة ١ : ١٠٦

٤) وقد يكون هذا المكان محفوظًا لاجتماع السادة . ابن سعد : الطبقات ١ : ١٣٦-١٣٠ ؛ ابن هشام ٤٧٣

٥) اطلب بحثنا في *Zaid ibn Thâbit*, 88

٦) الأزرقي (Wüstenfeld) ٦٧

٧) ابن هشام ٨٠

٨) القرآن ١٠٦ [قريش] ٢

٩) ابن سعد : الطبقات ١ : ٣٦ ؛ واطلب *La Mecque*, 78

تقترن بالحفلات الدينية ، موافقةً لإشارة الكُهّان والعرّافين . ولا يثير هؤلاء بالرحيل الّا اذا سألوا ربّ « البيت » الموكولة اليهم حراسته ، فيجيلون القِداح ، ويزجرون الطير .[1] وكيف يمكن ان تقف مئات الإبل — بل الألوف كما كانت تعدّ القوافل الكبرى — في ذاك المجال الضيّق . ونحن نعرف ان واجهة دار الندوة[2] كانت مما يلي فِناء الكعبة . وان هذا الفناء لا يتصل بالمدينة الّا بواسطة الطرقات الضيّقة المعروفة « بابواب » المسجد .[3] فينبغي ان نستنتج ان الحفلات الدينيّة ، السابقة رحيل القوافل ، كان يُقام بها في الدار نفسها ، على بعض خطوات من الكعبة .

وفي رجوع القوافل ، اذا حصل ما يمنع توزيع الأرباح على المساهمين ، كان من المتّفق عليه ان يظلّ المال موقوفاً في دار الندوة[4] ، كما جرى بعد وقعة بدر .[5] وهو برهان جديد على صفتها الدينية . وفي هذه الدار وحدها ، على قول مؤرّخي مكة ، كانوا يقومون بالاعمال المهمّة في حياة المجتمع[6] ، تلك الاعمال التي وسمتها الشعوب القديمة جميعها بالصفة الدينية . كانوا يحفظون في الدار لواء قُصَيّ المعروف « بالعُقاب ».[7] ومن هناك يخرجونه منشوراً دلالةً على قرب الدخول في الحرب . ولعلّنا لا نخطئ اذا قلنا انهم كانوا يحفظون ، في تلك الدار ايضاً ، القُبّة المعروفة ، التي كانت تظلّل البيت ، وتُحمل آن الطواف ، في عُمرة رجب[8] . ولا نرى في أقوال المؤرّخين كلمةً واحدة في هذا الموضوع . ذلك أنهم أخطأوا في فهم دور القُبّة الحقيقي ، واهمية الطوافات الدينية في حياة مشركي قريش . وفي دار الندوة كذلك ، كانوا يعلنون بلوغ الصبيان سنّ

١) راجع بحثنا في *Bétyles*, 85

٢) او باجا كما في ابن سعد : المكان المذكور

٣) راجع *La Mecque*, 87-88 ؛ اسد الغابة ٤ : ٥٧

٤) راجع *La Mecque*, 73

٥) ابن سعد : الطبقات ٢ : ٣٥ ؛ الواقدي (Kremer) ١٩٨

٦) ابن سعد : الطبقات ١ : ٦٢

٧) الاغاني ١٩ : ٧٦

٨) راجع *Bétyles*, 61, 78

الرجولية[١]. اما الصبايا فكان عليهنّ ان يدخلن الدار قبل ان يرضين بالخاطب[٢]. وفي كل هذه الحفلات كان من الضروري حضور بني عبد مناف، وهم المتحدّرون رأساً عن قُصَيّ، واليهم وحدهم كانت حراسة الدار.[٣]

وكيف لا يفكر الباحث، بعد كل هذه المعلومات، بوجود صفة دينية لحرّاس هذه الدار، من كهانة او سدانة، يحتكرها سُراة قريش. وقد أشرتُ، في بحث عن الحجارة المؤلّهة[٤]، الى وجود شيء غامض من هذه المنظّمات الاكليريكية في بعض مناطق الجزيرة، ولا سيما في الطائف حيث كانت سدانة معبد اللات « للأحلاف » في تلك المدينة[٥]. ولقد كان يمكننا زيادة الايضاح والتأكيد، لو كان الرواة والمؤرّخون، الذين نأخذ عنهم، اوفر ذكاء واقلّ غموضاً. بيد ان معلوماتهم المتبدّدة، المفتقرة الى كثير من التناسق، تعمل على إلقاء نور غير منتظر على تلك العبادة التي كان يوليها القرشيون جدّهم المؤلّه، تلك العبادة التي يشير اليها التقليد بشيء من الحَقَر، اذ يسمّيها « دين قُصَيّ.»[٦] ولنُضف الى ما تقدّم ما كان يناله قبر قصي من الإكرام التقليدي.[٧] وقد لا نخطئ اذا قلنا ان هذا القبر كان من محطّات الاحتفال بالسُرة المكية، قبل ان تدخل في الشعائر الإسلامية.

اما مؤرّخو الإسلام السنّي فيُنفقون كثيراً من الحذق والمهارة ليتزعوا أثر الشرك عن هذه البقايا الجاهلية. ويجتهدون في ايلائها شيئاً من القداسة الإسلامية يعمل، في نظرهم، على صرف انتباه المؤمنين عن هذه المظاهر الوثنية، وتبديد شكوكهم في صلاح هذه الشعائر الراقية الى عهد الشرك الجاهلي. وقد حفظ لنا القديس يوحنا الدمشقي في كتابه عن البِدَع[٨] مثالاً لا يخلو من البذاءة،

١) اليعقوبي: تاريخه ٢: ٢٧٧

٢) الازرقي ٦٥، ٦٦، ٤٦٤-٤٦٥؛ ابن سعد: ك. م. ١: ٦٩

٣) واولهم نشأ في جوار الكعبة، الازرقي ٦٦؛ اليعقوبي ٢: ٢٧٧. وقد يكون هناك تاريخ منذ عهد قُصَيّ، اليعقوبي ٢: ٥، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧

٤) *Le culte de: Bétyles*, 44

٥) راجع كتابنا في *Taif*, 83, 88, 90-91, 109

٦) اليعقوبي ٢: ٢٧٨؛ البلاذري: الانساب ٣٠: وجه.

٧) في مجموعة *P. G.* (Migne) LXIX, c. 766-773. ولم تكن بذاءة التعبير لترقف

عن هذه المحاولات في إسلام تلك الشعائر القديمة . ولعلّ المثال المذكور — اذا ما انتبهنا لعصر الذي ينقله الينا — اقدم مظهر لهذا النوع الادبي الذي كان من نصيبه ان يتّسع اتساعاً عجيباً في تطوّر العلوم الاسلامية . وقد عدل النبي على إدخال العُمرة المكية والحجّ العربي في إصلاحه الديني ، عندما أعلن « أن المساجد لله »[1] ، اي انه ينبغي ان تُخصّص للإله الواحد ، اله ابراهيم واسماعيل ، تلك المعابد القديمة ، والحجارة المؤلهة من أنصاب وأركان وسائر ما كان يوليه المشركون العبادة والإكرام .

بيد ان هذه البقايا الجاهلية لم يتمثلها الدين الجديد بالسرعة المطلوبة ؛ فظلّ منها ما يتنافر في مظهره الوثني والتوحيد القرآني الصارم . فكان من مهمّة مؤلفي السيرة ، وارباب الحديث والتفسير ان يعملوا على التخفيف من هذا التنافر . فخالوا أنهم يحلّون المشكل ، اذا ما ألحقوا هذه الآثار والذكريات الجاهليّة باسماء مكرّمة كأسماء ابراهيم واسماعيل ومحمد نفسه . حتى اذا لم يوفّقوا الى هذا الإلحاق تصوّروا العلاقات بين هذه البقايا وخديجة ، او عائشة ، او علي ، ومَن اليهم من ابطال الإسلام الأوّل .[2] ولعلّ من آثار هذه الغيرة ما نراه من ألقاب غريبة لبعض المساجد كمسجد الكبش[3] ، ومسجد الشجرة ، ومسجد الجنّ .[4] ولا حاجة الى التوسّع في ما تدلّ عليه هذه الأسماء .[5] ولا سيما اسم مسجد الشجرة[6] من عبادات بعيدة عن التوحيد !

المفسّرين القدماء الذين اخذ عنهم القديس يوحنا الدمشقي هذا المثال . أساذجة تلك البذاءة ام بصطنعة ؟ راجع Gaud.-Demombynes, *Pèlerinage*, 185 وهي مصطنعة خاصّةً ، اصطناع التعابير الغريبة في التفسير والحديث

١) القرآن ٧٢ [الجنّ] ١٨

٢) راجع الجداول الأبجدية في de Goeje) *Bibioth. geograph. arabic.* ؛ و (*Chroniken* (Wüst. ؛ الازرقي ٤٢٢ ؛ ابن جبير ١١٣ ، ١١٢ ؛ Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 21-22

٣) Dozy, *op. cit.*, 91-92 ٤) ابن جبير : ث . م . ١١٠

٥) قابل بما في Snouck Hurgronje. *Mekkaan. Feest*, 87

٦) وهناك « ذات أنواط » وهو مسجد مشهور ، الازرقي ٨٣ ؛ Dozy, *op. cit.*, 19 ؛

وسواء أكانت دار الندوة في اصلها مسجداً ام لا ، فلا شك في انها كانت ملتحقة بالفناء الضيق الذي يؤلفه الحرم المركزي او حرم البطحاء.[1] وكانت هذه المنطقة ، دون شك ، اقدس مناطق مكة ، وفيها كان يظهر « بيت الله » في بساطته القديمة ، فيُدعى « مسجد الكعبة » . اما بيتا الصفا والمروة فان القرآن ادخلهما في التوحيد ، مؤيداً صفتيهما المقدسة ، عاداً اياهما « من شعائر الله » ، ومن « المشاعر » ، ومن « المناسك ».[2] وقد يُضاف الى هذه الأسماء احياناً اسم « المواقف ».[3] ولكن التفسير الاسلامي لم يدقق ، لسوء الحظ ، في تحقيق هذا الترادف . اذ ظلّ مهتماً ، فوق كل شيء ، بان يجد الآيات على التوحيد الابراهيمي في جميع المظاهر . فصرفه هذا الهمّ عن النقد والمقابلة . أو ليست الكعبة تمثل آية التوحيد العريق[4] ، والاحتجاج الدائم على مظاهر الشرك المتعددة ؟ لهذا وضعها القرآن وسط العبادة الاسلامية ومركز نظامه الطقسي « فجعلها الله البيتَ الحرام قياماً للناس . . . »[5]

و« ذات الساق » ، شجرة مقدسة صلّى بقربها محمد ؛ البكري ٤٨٣ ؛ السهودي ٢ : ١٨١ ولنذكر شجرة الحُدَيبيّة . وفي « السيرة » ذكر لعدد من الاشجار المقدسة منها « ذات الرقاع » ، ابن هشام ٣٥٨ ، ٦٦٢ ؛ السهودي ٢ : ٣١٢ . « مسجد الشجرة » في ذي الحُلَيفة ، السهودي ٢ : ١٦٣ ، واحياناً يُسمّى « الشجرة » دون زيادة ، كأنّ التعبيرين مترادفان ، كما تدلّ عليه مقابلة الاحاديث ، راجع الدارمي : السُنَن (مخطوطة المكتبة الخديوية) ٢٥٦

١) راجع في حي البطحاء كتابنا ... *La Mecque*, 88

٢) القرآن ٢[البقرة] ١٢٢ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ؛ ولا يخفى ان فعل نَسَكَ بفيد أراق الدم في مناها الاصلي (اطلب النسائي : السُنَن ٢ : ٣٨ ، وفيه : «انسك شاةً» اي ضحّ بها) وقابل بها في R. Smith, *Religion of the Semites*, 229 والمشاعر=المناسك ، اطلب اسد الغابة ٣ : ٢٧٢ ، Wellhausen, *Reste*, 118 ؛ ١١٥ : ١٣٠

٣) الطبري : التفسير ٢ : ٣٥-٣٦ . وفي ابن هشام ١٧٣ يصلح ولهوسن كلمة « مشعر » « بشعر » . واطلب رأي ابن هشام في هذه القطعة المنحولة ، ص ١٧٧

٤) او الحَنَفيّة « بقايا دين اسميل » ؛ ابن قتيبة : كتاب العرب (طبعة محمد كرد علي) ٢٩١ . والنابغة الجعدي يسمّيها « دين ابراهيم » ، اسد الغابة ٥ : ٣ . ولهذا احتاج التفسير الى « تعبير » هذا الشاهد المزعوم على التوحيد الجاهلي فمرّره الى ما وراء الحدّ . وهو من رجال العصر الاموي بل المرواني .

٥) القرآن ٥ [المائدة] ٩٨

وبعد بحثنا في الصفا والمروة، لم يبقَ من شك في ان القدماء كانوا يقومون حولها بالشعائر التي كانت تُقام حول الكعبة . وكان هناك « بيت »[1] يظهر موضوعاً لهذه الشعائر . وان لنا في الالفاظ المتعدّدة من مشاعر ومناسك ومواقف لدليلاً على تعدُّد مظاهر تلك الشعائر وتنوّعها . ولكنها لا تفيدنا شيئاً في تنسيقها، ولا في وصفها وتحديدها . ولا تسعفنا مفردات القرآن في ذلك باكثر مما اسعفتنا في شأن تحديد « المساجد » . انما هو الغموض نفسه يحيّر الشرّاح والمفسّرين، كما يحيّرنا اليوم، لدى هذا الغنى في المترادفات . على اننا نعتقد ان « الشعائر » تدلّ اولاً على الاماكن المقدّسة، ثم على مجموعة من الحالات والاعمال الطقسيّة الحقها القرآن بالتوحيد[2]، وحرّم انتهاكها وامتهانها.[3] اما « المشاعر » فهي « مواضع النسك » في نظر المفسّرين، اي تلك الاماكن التي تُقام فيها العبادات والتضحية . ولا يخفى ان التعليل اللغوي يؤيّد هذا الشرح، على ما فيه من غموض.[4]

في ديوان حسّان بن ثابت قصيدة يمدح بها احد مشركي مكة فيستهلّها « عظيم المشعرين ورَبّها . »[5] ولا أرى النعت الّا جارياً مجرى النعت القرآني « عظيم

---

١) البخاري (Kr.) ١ : ٤٣٤

٢) القرآن ٢٢ [الحج] ٣٢، وفيها : « ومن يعظّم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ». ثم ٢٢ [الحج] ٢٧، وفيها : « والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ». والشعائر هنا تفيد الضحايا، وهو معنى لا يوافق ما ورد في السورة الثانية من القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢ : « ان الصفا والمروة من شعائر الله . . . » ولا ما في السورة الخامسة [المائدة] ١ : « يا ايها الذين آمنوا لا تُحِلّوا شعائرَ الله ولا الشهرَ الحرام . . . » والمعنى في هاتين الآيتين بعيد عن الضحايا، بل انه في السورة الثانية يدل بوضوح على الاماكن المقدّسة . اطلب Wellhausen, *Reste*, 11

٣) القرآن ٥ [المائدة] ٢

٤) اطلب تاج العروس ٣ : ٢٠٤ ؛ Lane, *Dict.*, IV, 1562 . وضع الحديث « مشاعر » بني، وزُدَيفة، وقُزَح ؛ ابن جبير ١٧٢، مُسلم : الصحيح ١ : ٤٤٩ ؛ الدارمي : المخطوطة المذكورة ٢٦٦ . ويُستنتج من القرآن ٢ [البقرة] ١٩٤، وجود « مشعر حرام » بعرفات .

٥) ديوان حسّان ٨٨ : ٣ . وقد يكون « المِشْعَر » لغةً في « المَشعر »، اطلب *Chroniken*. W., II, 9

القريتين »[1] ولا شكّ في ان تأليف القصيدة — وهي مدحة لا طرافة فيها ولا فنّ — متأخر عن ظهور السورة الثالثة والاربعين ، راقٍ الى عهد إسلام الشاعر.[2] اما الممدوح الظافر بهذا اللقب الضخم فيُدعى مطعم بن عدي. كان من سُراة قُريش وأجار محمدًا على اثر رجوعه من رحلته المخفقة الى الطائف . فحفظ له النبي هذه المكرمة ، حتى انه أعلن ، بعد وقعة بدر ، انه لو كان مطعم بقيد الحياة لما تردّد في اطلاق اسرى القرشيين إكراماً له.[3] ومن الممكن ان يكون حسّان قد قلّد بعض سلفائه فاستوحى منهم التعبير المذكور وهذا الشاعر المشرك ، قيس بن الخُدادية ، يذكر « المشعرين » في قصيدة مدح بها عديّ بن نوفل المكّي[4] ، ويظهر انه يعيّن مركز المشعرين في منطقة الحَرَم.[5] وهذا التعيين نفسه يُستنتج ، على ما نرى ، من قصيدة للشاعر المخزومي الحارث بن خالد[6] ، في اواخر القرن الاول للهجرة ، يتناول فيها تعبير حسّان بن ثابت .

لم تأخذ الجاهلية العربية بالتوحيد في مظاهرها الدينية. بل كثيرًا ما كانت ترمي الى الثنائية في احتفالاتها وشعائرها كما بيّنا في بحثنا عن الحجارة المؤلّهة.[7] يظهر ذلك في الأيمان المعروفة باللات والعُزّى ، كما يظهر في الطوافات الدينية التي كان يحفل فيها الطائفون « ببيتين » مؤلّهين[8] ، وكذلك القول عن « الرُكنين اليمانيَين » والالهين إساف ونائلة . وهكذا كان الطائفون يجتهدون ، في اثناء

١) القرآن ٤٣ [الزخرف] ٣٠ ؛ واطلب *Tāif*, 11, 71, 102-103

٢) وهو يسمّي محمدًا « رسول الله » (البيت الرابع) . وينبغي ان يكون تأليف القصيدة بين الهجرة ووقعة بدر

٣) ابو داود: السُنن ١ : ٢٢٦ ، وفيه ذكر احترام محمد لمطعم ، وكذلك اسد الغابة ٤ : ٢٧١

٤) الاغاني ١٣ : ٦ ، وعدي هذا من بني عبد مناف ، ينبغي التمييز بينه وبين عدي آخر كان من الصحابة وذكر في اسد الغابة ٣ : ٣٩٨

٥) *Bēlyles*, 75

٦) الاغاني ٣ : ٩٩ - وفي شعر لبشّار نرى المشعر = الحَرَم ، الاغاني ٣ : ٢١ ، وقريش المشعر = قريش البطحاء ، اي سراة قريش.

٧) *Bēlyles*, 74...

٨) *Bēlyles*, 54, 73...

العُمرة والحجّ ، في ان يجمعوا بين معبدين او منسكين بالإفاضة ، والنَّفر ، والدَّفع ، وكلها من اساليب السعي او الطواف الديني . على ان هذا لا يقدّمنا في فهم حقيقة « المشعرين » . وان كانت البديهة تدفعنا حالًا الى التفكير بالصفا والمروة وقد جمعها القرآن ، والحديث من بعده . واي أثرين احقّ منهما بلقب « المشعرين » دالًا على العلاقة بينهما علاقة الازدواج او الثنائية . اما من جهة اللغة فان التعبير قد يظهر الترادف بين « المشعر » و« المسجد » . ومن الممكن ان يكون مُطعم بن عدي ، بصفته من ابناء عبد مناف[1] ، اي من اعظم سراة مكة ، قد قام بالحجابة او بالسدانة لدى المكانين المقدّسين ؛ او ان يكون له ، على الأقل ، بعض الحقوق عليهما . وكان بيته[2] قرب « المسعى » اي الطريق الجامع بين الصفا والمروة . ولا يخفى ان كلمة « ربّ » في التعبير « عظيم المشعرين وربّها » لما يبرّر استنتاجنا . وهي من المفردات الدينية في لغة قدماء العرب تدلّ على درجة او رتبة في النظام الاكليريكي زمنَ الجاهلية .[3] وهكذا يكون ابناء قُصَيّ ، ومنهم مطعم بن عدي ، قد بسطوا نفوذهم على الاماكن المقدّسة الثنوية ، واخذوا يراقبون الحفلات الدينية مستغلّين ما تفيده من ثروة وجاه .

وكان هذا خير طريق لمنع منافسة قد تضرّ بافضلية الكعبة ، كما كان خير اسلوب في إعداد العمل الجمعي ، وإخضاع تلك المناسك العديدة للبيت الأصيل . وهي سياسة طالما رمى اليها سراة القرشيين في سبيل مصلحة قبيلتهم ، قبل ان يقوم بها النبي باسم الله . وكان حسّان شاعره الخاصّ ، كما لا يخفى ، فلم يكن من الممكن الّا يُطلع النبي على نتاج قريحته . ولم يكن النبي ليدَعه وما تلهمه تلك القريحة في ما خصّ الشؤون المكّية . واذًا فلا يمكن ان يكون

---

١) اطلب Wüstenfeld, *Genealog. Tabellen*, V, l. 21

٢) الازرقي ٢١٣ ، ٤٦٣ . وقد حُوّل ، في ما بعد ، الى قصر زاته «القوارير» . ولا يُقصد بالقوارير «المراتي» كما فهمها Gaudefroy-Demombynes, *Pèlerinage de la Mecque*. 134 ، بل انواع القسيساء ، كما يظهر من نصوص الازرقي التي اشرنا اليها في هذه الحاشية .

٣) راجع *Bibles*, 11... . وقد نظم النبي استعمال كلمة « ربّ » ، مسلم ٢ : ٣٦٩ – ٣٧٠ ؛ البغوي : مصابيح السنّة ٢ : ١٠٢ ؛ *Berceau*, I, 203

التعبير «عظيم المشركين وربّها» قد فات انتباه الرسول ، ولا سيما في زمن كان فيه القرآن[1] ينازع القرشيين حقوقهم في مناسك مكة . ولا شك في ان هذا الموقف يدلّ على تساهل النبي تجاه العبادة الوطنية في مجتمعه ، كما يدلّ على رغبته في مخالفة الأسر الكبيرة في مكة وكان هو نفسه مَدينًا لمطعم باشياء لا شك في اهميتها حتى استحقّ مطعم هذا المدح الفخم من شاعره الخاصّ . ومن الصعب ان لا نرى فيه اشارةً الى شيء من الرقابة على شعائر العبادة القرشية كان يضطلع به مطعم . وهذا قول حسّان :

أجرتَ رسولَ الله منهم ، فاصبحوا عبادَكَ ، ما لَبّى ، مُلاثٌ وأحرما![2]

ولم كنا نودّ اشارة صريحة الى ما يهمّنا من هذا الأمر . ولا شك في ان مؤلفي السيرة استغلوا هذا البيت في سعيهم الدائب وراء الشعر المعاصر للهجرة. فاكتفوا باستخدام ذلك في ترويق حكايتهم عن رحلة النبي الغامضة الى الطائف.[3] وكان من الحقّ ان يقوموا بأفضل من هذا العمل .

وبعد كل ما تقدّم ، لا نستغرب استعمال القرآن «للمساجد» بصيغة الجمع. واذا سمحناه يطالب بحقّ ملكيتها لله ، فينبغي ان نفهم المقصود بها كل المؤسسات الدينية في مكة . من الكعبة الى ملحقاتها القريبة كدار الندوة ، والحجر ، وزمزم ، ومقام ابراهيم ؛ الى منسكي الصفا والمروة . وقد افادنا تدخّل القرآن ما كان لتلك المناسك الجاهلية من أهمية يجتهد الحديث في إضعافها.[4] وبعد ذلك نفهم المناسك الثنوية ، كالمواقف والمعابد ، كبيرة كانت او صغيرة ، والمذابح ، والبيوت او الحجارة المؤلّهة ذات الألوان المتعدّدة ، والهيئات المتباينة ، والاسماء المتكاثرة من مَشعَر ، ومَسجِد ، ومَنحَر ، وموقف ، وبيت ، وحَجَر ، ورُكن ، ومقام ، ونصب ، وجَمْرة الى ما شاكل من تلك الحجارة مبنيّةً كانت

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٠٨ ، ولا سيما ٩ [التوبة] ١٧-١٩

٢) الديوان ٨٨ : ٤

٣) راجع ابن سعد : الطبقات ١ : ١٤٢ . ولا يذكر حسّانٌ ابن هشام ولا ابن سعد . على انني لا اشك في ان حكاية الإجارة التي قام بها مطعم مأخوذة عن هذا الشاعر .

٤) راجع النسائي : السنن ٣ : ٤٠-٤١

او منصوبة ، مطروحة على الأرض او مكوّمة ، مفردةً قائمةً بنفسها او مقتطعةً من صخور الجبال ، نابتةً على شكل المسلّات او مصنوعة على شكل النواويس ، تلحق بها الأشجار المقدّسة وتعاليقها من أساحة ونذور متنوّعة . ثم رؤوس الجبال ، وغرات الكهوف والمغاور ، المنتشرة جميعها في منطقة مكة ، تولي هذه الناحية من تهامة شكلها الخاصّ وجاذبيتها القوية .

فكان من همّ الإصلاح الديني الرامي الى التوحيد أن يتسلّل جميع هذه المظاهر الجاهلية ، جميع بقايا الشرك بما تجره من شعائر ومراتب واحتفالات طقسية ، كما شاء ان يتسلل اصحاب تلك المراتب كالحجّاب ، والسَدَنة ، والكهّان ، والعرّافين ، وزاجري الطير ، وسائلي القِداح ، وضاربي الحصى ، والكواهن ، والساحرات النافثات في العقد[1] ، والمكلفين تنظيم التاريخ وعدّ النسيء ، والقائمين على السقاية[2] او توزيع مياه زمزم ، وأدلّاء العُمرة والحجّ اصحاب الإجازة والإفاضة[3] . كل هذه المظاهر رأى النبي ان يلاشيها في سبيل التوحيد . وهكذا كان استعمال صيغة الجمع في « المساجد » مقصودًا ، لتُصبح كلها لله . ولا تتصوّرنّ مساجد مبنيّة كما نرى اليوم . اذ لم يكن في مكة الّا مسجد واحد له شيء من مظاهر البناء ، هو مسجد الكعبة . ولم يكن فيه ، أوّلَ الأمر ، الا اربعة جدران لا سقف عليها . ثم اخذ القوم يُكثرون فيه من معبوداتهم الحجرية ، فاستقبل بين جدرانه ، الى جنب الحجر الأسود ، أهمّ الحجارة التي كانت مبدّدة في فِناء الكعبة . هي الأركان التي يجتهد الحديث في اخفاء تعدّدها ، وطمس اصلها ، فيعمل ، قاصدًا او غير قاصد ، على الخلط بينها وبين زوايا الكعبة[4] . ولا يزال بعض هذه الأركان هدفًا لإكرام الحجّاج حتى يومنا هذا .

نفهم الآن سعة القصد من ذاك التعبير البسيط المظهر : « ان المساجد لله » .

---

١) راجع في كل ذلك : *Rityles*, 45.

٢) اطلب القرآن ٩ [التوبة] ١٦

٣) وهم سُبّاق « المطوّفين » في عصرنا .

٤) البخاري : ك . م . (Kr.) ١ : ٤٠٦ ؛ ابن حنبل : ك . م . ٤ : ٦٤-٦٥ ، ٦٨ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٤٦ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ؛ *Rityles*, 74-75

انما الله يمثل هنا الاسلام ونبيّه . واذًا فهي عمل وضع اليد على كلّ مظاهر الشرك القديم . وهكذا امكن القول : « إنّ الصفا والمروة من شعائر الله . . . »[1] وهو أمر كافٍ في نزع أثر الشرك عن المناسك والمعابد الجاهلية . فليهدأ الأنصار ؛ وليخفّفوا من حماستهم في مجاهدة تلك المناسك[2] . فالنبي أخبر بالأمر ، وهو العارف بان سياسة اللين والتساهل والانتظار تؤدّي الى ما لا تؤدّي اليه سياسة العنف والمجابهة . ولعلّ من تطبيقات هذه السياسة الدينيّة الناجحة موقفه مما اشار اليه القرآن في الآية التاسعة عشرة من السورة الثالثة والخمسين وما اوردته « السيرة » بعنوان « الغرانيق العُلى » . وذلك أنه قد يكون تساهل بشأن المثلث الالهي المعروف باللات ، والعُزّى ، ومناة ، على شريطة ان تنحطّ رتبتهنّ عن رتبة الله[3] ؛ « ان الله منهنّ أكبر ! » كما قال أوس بن حجر .

يظهر من استعمال القرآن « للمساجد » ان هذه اللفظة ، بصيغة الجمع ، كانت معروفة مستعملة في لغة قريش الدينية[4] . ويظهر انها كانت تدلّ ، مع لفظة « المشاعر » — وهذه اقرب الى اللهجة البلدية ، على ما نرى — على جهرة المناسك والاحتفالات في العبادة الحجرية في بلاد العرب الغربية . ولم فازت لفظة المساجد على زميلتها في استعمال القرآن ، ومن ثمّ في اللغة الدينية الاسلامية ؟ لعلّ ذلك للعلاقة اللغوية ما بينها وبين « سجد » .[5] اما هذا الأصل فيكاد يكون مجهولًا في اللغة الجاهلية . ولا اخاله عُرف الّا في لهجات القبائل التي كانت على اتصال مع الاراميين في بلاد الشام وما بين النهرين . وقد استعمل القرآن فعل

---

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٣ .

٢) النسائي : السُنن ٢ : ٤١ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٨٩ — ٤١٠ .

٣) راجع في مصادر هذا الشأن Noeldeke-Schwally, *Geschichte des Qorâns*, I, 100...

٤) وهي لا تدلّ حتمًا على بناء ، اطلب Snouck Hurgronje, *Mekkaan. Feest*, R. Bell, *op. cit.*, 51... ثم ؛ 44, n. 2 .

٥) راجع في معاني « سجد » حماسة البحتري (طبعة شيخو) عدد ١٣٩ ؛ Salhani - Haffner, *Drei arabische Quellenwerke über die Addâd*, 43

« سجد »[1] للدلالة على كيفية الصلاة الاسلامية الدخيلة ، اي التي لم يعهدها البدو في جاهليتهم . فكان على النبيّ ان يجتهد في سدّ الثلم الواهية في تلك اللغة الدينيّة الخشيلة . وكثيرًا ما عمد الى المفردات السامية القديمة فحمّلها المعاني الجديدة[2] التي كانت تتضح شيئاً فشيئاً مجاراةً لحركة اصلاحه الديني .

ولا يخفى ان المجال متّسع ، في هذا الموضوع ، لدرس ناحية جديدة من التطوّر اللغوي والنفساني في لغة القرآن . ومن مظاهر هذا التطوّر ان لفظة « المسجد » نازت على مرادفتها لفظة « المشعر » ، في التعابير العربية ، ثم تجاوزتها الى لغاتنا الغربية فاغنتها بكلمة جديدة هي كلمة mosquée .

اما « المشعر » فلا يزال معناه الاصلي غامضاً ، ذاك المعنى الذي كان الجاهليون يفهمونه به ؛ ولعله كان على اتصال بـ« شعر » الذي معناه « عرف » و« حدس ».[3] فيكون « المشعر » دالاً على المعبد الذي يقوم فيه الكاهن او العرّاف بمعرفة الغيب وتعريفه[4] . ويكتفي الطبري بشرح « المشاعر » « بالمعالم »[5] . وهو ترادف غامض لا يقدّمنا خطوة في طريق الحلّ . وقد لا نخطئ اذا فهمنا « المشعر » بمعنى المكان المقرّر للقيام « بالإشعار »[6] وهي عملية تعيين الاضاحي المعدّة للذبيحة[6] . ومن ثمّ قد يكون أطلق الاسم « المشعر » على المعبد نفسه الذي كانت تُقاد

---

١) ولم يستعمل من الفعل الّا صيغة الماضي ، وكأنّها وحدها المستعملة . ولنلاحظ ان هذا الاصل لم تتّسع مشتقاته في اللغة العربية .

٢) من مثل المحراب ، والحَنيف ، والفُرقان ، والزكاة .

٣) راجع مسلم : ك . م . ١ : ١٠٠ د

٤) Goldziher, *Abhandlungen*, I, 3, 5. 17-34

٥) الطبري : تفسيره ٢ : ١٦١ — وقد دلّني زميلي الاب صالحاني على شرح « المشاعر » في لسان العرب ٦ : ٨٠ جاء فيه : « المشاعر كل موضع فيه خير واشجار » واذا فهو من الامكنة .

٦) ابن السكّيت : تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ٤٠١ ، ٧٣٨ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٦٦ ؛ البغوي : الكتاب المذكور ١ : ١٤١ ؛ مسلم : ك . م . ١ : ٤٨١ . اما تلك العملية فكانت تقوم بان تُجرح الاضحية قليلاً في جانبها الأيمن ، وهو معنى القول : « اشعرها في سنامها الأيمن » . وقابل بقول الفرزدق الذي اورده الطبري في تاريخه ٣ : ١٠٨ : « فبتّ كأنّي . . . » واطلب Snouck Hurgronje, *Mekk. Feest*, 45

اليه الذبائح فيضحى بها ، وهو مكان « الشعائر » . وقد رأينا في النصوص القديمة كثيرًا ما تُبدل « الشعائر » بـ« العتائر »[1] . وكأنّ قدماء الناطقين المسلمين رأوا في « العتائر » اثرًا لاضاحي رجب تلك التي تسمّى الرجبيّة ايضاً[2] ، فاعرضوا عنها وابدلوا بها « الشعائر » . ولا يخفى ان رجب كان شهر الاعياد الدينية في العصر الجاهلي[3] . ولهذا شاء الاسلام ان يلاشي ذكره فابدل بالتعبير الدالّ على ضحاياه تعبيرًا أيّدته لغة القرآن[4] . على ان لفظة « المشعر » في دلالتها الخاصة على موضع التضحية ، قرب المعبد ، او المنحر ، الذي كانت تُنحر فيه الشعائر او العتائر ، كانت أضيق من ان تفي بمقصود النبي . فلم يتردّد في تفضيل لفظة المسجد الجديدة الخالية من كل اثر للشرك الجاهلي[5] .

ولم يكن العرب ، في الجاهلية ، يعرفون من الصلاة الا تلك التعابير المقتضبة الجامدة التي تكوّن الدعاء . فكان من إصلاح النبي ، وقد عرف الصلوات الطقسية عند اهل الكتاب ، أن ادخل في الدين الجديد الصلاة القرآنية المعروفة بما تفرض من حركات منظّمة خاصّة « بالسجود » ، سواء أكانت فردية ام جامعة . ولا يخفى انها اجلى مظهر للعبادة الخارجية[6] وقد كرّر القرآن ذكر هذه الصلاة مقترناً بها ذكر السجود .[7] وهو سبب جديد في الميل الى تفضيل « المسجد » على « المشعر » .

---

١) Wellhausen, *Reste*, 118

٢) اسد الغابة ٥ : ١٤ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ٦٦ ؛ ثم اسد الغابة ٦ : ٢٢٩ ، ٢٦٧ وفيها يُغيّر النبي الترادف بين التعبيرين ؛ ابو داود : السُنن ٣ : ٣ ، ٥ ؛ العتائر تعني الضحايا المتروكة للسباع ؛ ابن هشام : السيرة ٦٥٩ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ٩ ؛ الدارمي : المخطوطة المذكورة ٢٨٨

٣) وقد ظلّ عيد مكة المهمّ ، اطلب ابن جبير ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ؛ *Bilder*, 62, 78 . وكان المشركون يخصون هذا الشهر بالعُمرة ، النَّسائي : السُنن ٢ : ٢٤

٤) القرآن ٢ [البقرة] ١٥٢ ؛ ٥ [المائدة] ٢ : ٢٢ [الحج] ٣٢ ، ٣٧

٥) لم ترد لفظة « المشعر » في القرآن الّا مرة واحدة (٢ [البقرة] ١٩٤) ، وهي بصيغة المفرد ، وكأنّ القرآن لا يريد ان يعرف الّا مشعرًا واحدًا .

٦) القرآن ٢ [البقرة] ١١٩ ؛ ٢٢ [الحج] ٢٦ : ٤٨ [الفتح] ٢٩ . . .

٧) اطلب « سجد » في جداول القرآن .

اما المشعر فنراه مقروناً عادةً بالموقف ، اي محل وقوف الحجاج و«الموقف» يعيّن حالة الخشوع الطقسي التي يتخذها العباد والحجّاج المشتركون بحضورهم في التضحية ، عندما يدعوهم الى هـذه الشركة القائم بالذبيحة او السادن . وهو خشوع قصير الأمد تتلوه فجأةً حركة « الإفاضة » . والإفاضة تعني تارةً ذاك الهجوم الصاخب[1] ، صخبَ النهر الفائض ، الذي يقوم به الحجّاج على الأضاحي[2] ، وطوراً ذاك السعي الضاجّ المعروف « بالنفر » او « الإغارة »[3] يندفع فيها الحجّاج نحو معبد قريب ، وراء القُبّة التي تظلّل البيوت او الحجارة المحمولة في الطواف .[4] والى جنب كل « مشعر حرام » يذكر التقليد موقفاً خاصاً .[5]

ذلك ان التضحية ، وهي ارفع مظهر للعبادة البدوية ، كانت تشتمل على ثلاثة اقسام : عملية النحر والاستعداد لها ، وذلك في «المشعر» الذي يُدعى أيضاً « المنحر » لهذا السبب . ثم « الوقوف » ، وقوف الحاضرين واشتراكهم في عمل المضحّي بالنيّة و« بالدعاء » الصاخب خاصّةً ، واخيراً « الإفاضة » وهي اشتراك الحاضرين بالفعل وتناولهم لحوم الأضاحي . بيد ان التقليد السنّي جهل او تجاهل هذا الترتيب ، عاملاً على نشر شيء من الالتباس بين معاني المشعر ، والمنحر[6] ، والموقف والافاضة . اما في الحجّ الاسلامي فلم يبقَ من معنى « للموقف » ، اذ فقد علاقته المعقولة بسائر شعائر الحجّ . ذلك ان الاسلام ألغى الأضاحي لدى المعابد القديمة جميعها . فاصبح الحجّاج يقفون الساعات الطويلة ، أمام هذه المحطّات ، ولا يعرفون لماذا .

---

١) شلك وفلوسن في هذا المعنى (Wellhausen, *Reste*, 120) ولم يكن مصيباً في شكّه ، على ما أرى .

٢) قابل بها في القرآن (٧٠ [المعارج] ٤٣) : « الى نُصُبٍ يوفضون »

٣) كما في القول : أشرِقْ ثبير كيما نُغير

٤) *Bibles*, 59-60

٥) كما في مُزدلفة ؛ الطبري : تفسيره ٢ : ١٦٤ بالقرب من معبد الاله قُزَح .

٦) الدارمي : السنن (المخطوطة المذكورة) ٢٧٢ ؛ ابو داود : السنن ١ : ٢٢٢ ، وفيها ان كل ارض في مكة تُعتبر منحرًا .